(الآفاق القصية.. دراسة في المعلقات)

منهج وأسلوب جديدان في مراجعة التراث

في قراءة التراث –الشعر منه على الأقل– ينبغي على المرء لا أن يحبه حباً أعمى بدافع التحصن من نقص القدرة على مواجهة الثقافة الغربية الوافدة، والتي تأخذ سمة (الثقافة الغازية) في العديد من مستويات وفودها.. بل على قارئه أن يحبه لذاته أولاً بأول من حيث هو أحد أهم الأسس التي قام عليها "بنياننا الثقافي" العام، فتحددت في ذلك البنيان طبيعة هويتنا الحضارية وخصائصها وطبيعتها.. إلى آخره.

وحب التراث هكذا يعني: إعادة قراءته نقدياً. وإعادة القراءة هذه تستلزم أن تتوفر لقارئه جملة من الأمور الأولية التي عليها وبها يؤسس منهجه النقدي الخاص بتلك القراءة الجدية.

وأول ما يجب توافره من تلك الأمور الأولية هو: المعرفة التاريخية للأعمال المقروءة، أي معرفة سياقات الشروط الزمانية والمكانية لإنتاج تلك الأعمال.

وثانيها هو معرفة طبيعة اللغة التي تنتجها أو تكيِّفها معها تلك السياقات، ويترتب على هذا معرفة طبيعة الفكر السائد في حقبة إنتاج تلك الأعمال، ومدى الانزياحات اللغوية بين الاستعمال الاجتماعي للغة آنئذ وبين الاستعمال الشعري الذي عليه أن يظهر ما لا يظهره سواه من كوامن ومخبوءات المناخ

الاجتماعي والنفسي والعلائقي السائد وقت إنتاج تلك النصوص، وكشف الهوامش النشطة في حياة الأفراد والجماعات التي يلعب عليها الشعر، والصلة بين الصورة الشعرية كمظهر جمالي/ فكري في القصيدة لاكتشاف العلاقات بين الأشياء./ ونحن هنا نستخدم استخداماً شبه حرفي بعض عبارات الأديب الناقد وفيق خنسة في كتابه (الآفاق القصية–دراسة في المعلقات) والذي حوله وعليه تدور مادتنا المكتوبة هذه/.

وثالثها هو معرفة مناهجنا النقدية العربية القديمة بما لها وما عليها، إذ هذه المناهج قد أنتجت على قرب عهد من تراثنا الشعري وفي ظل ثقافتنا العربية التي كانت سائدة عالمياً.

ورابعها هو معرفة المناهج الغربية والعالمية الحديثة في النقد الأدبي، وقد تم تمثلها من قبل قارئ التراث الشعري وإدماج معطياتها في متحصلاته المعرفية من "بنياننا الثقافي" الإجمالي، والتي تشكل مناهجنا النقدية القديمة جزءاً هاماً من إنجازاته ومكوناته في آن معاً.

وخامسها هو توفر المقدرة الجيدة على التذوق الجمالي من قبل القارئ، وعلى الاستقراء والدمج الاستنتاجي لمحصلات القراءة في إطار نص نقدي متماسك ودال ومؤثر، بصورة ما، في الراهن.

وبالطبع هناك أمور أخرى كان يمكن ذكرها ولكننا نكتفي بما أوردناه لاعتقادنا أنه يفي بالغرض.

وهذه الأمور مجتمعة، نعتقد أنها توفرت –أو هي متوفرة على أرضية معرفية، أدبية وغير أدبية، جيدة للشاعر والناقد المعروف وفيق خنسة.

ومؤخراً أنجز وفيق قراءة جديدة للمعلقات تحت عنوان سبق لنا ذكره "الآفاق القصية" وهو إذ يرى الكم الغزير من قراءات المعلقات، منذ القديم حتى اليوم، (بدءاً بالدراسات البلاغية وانتهاء بالدراسات البنيوية) يثبت أنها لم تكن فاشلة أو قاصرة (لكنها تخطئ إذ تظن أن بعداً واحداً- مهما كان أصيلاً وعميقاً- يمكن أن يستنفد عملاً كبيراً كالمعلقات). وهو بهذا يؤكد على مشروعية قراءته الجديدة، وعلى الأساس التالي:

(إعادة كتابة ذلك التاريخ- يقصد التاريخ الجاهلي- ولكن على أساس أسئلة ننشئها نحن دون أن تكون تقليداً أو صدى لأسئلة أخرى. وعلى أساس أن نجيب على أسئلتنا بحناجرنا دون أن نستعير حناجر الآخرين).

وإذاً، هناك وظيفة راهنة لهذه القراءة وهي إعادة امتلاك نقطة البدء في تاريخنا، أو نقطة الصفر كما يسميها وفيق، (ذلك أن أصحاب المعلقات يعبرون عن ثقافة العرب في الجاهلية.. في أصفى وأرفع مستوياتها) وهم في معلقاتهم يقدمون لنا -بالتالي- آفاق رؤية العربي الجاهلي للعالم ومفردات العالم، مثلما يقدمون كيفيات هذه الرؤية، والموقف من العالم في نهاية التحليل.

وإذا كنا نختلف مع وفيق في أن العصر الجاهلي هو (نقطة الصفر) أو المنطلق لتاريخنا العربي، حيث نرى البدء قبل أربعة آلاف عام من هذه "النقطة" فإننا لن نخوض هنا سجالاً حول ذلك، ولكننا سنبين بعض المترتبات على هذا الاعتبار عند التعرض لتحليلاته اللاحقة.

والأسس المنهجية في دراسة أديبنا الناقد هذه هي أسس تدل على توجهه نحو (المنهج التكاملي) الذي يتمثل سائر المناهج

المعروفة ويعيد إنتاج منطلقاتها وأساليب أدائها في (كل) جديد يستفيد منها جميعاً، ناهيك عن تمثله لمناهجنا القديمة. فترابط الفن العظيم بوجود فكر عظيم، واعتبار اللغة نتاج الجماعة البشرية حيث الكلام الشعري ينزاح قليلاً أو كثيراً عن استعمالها الاجتماعي وكون كلام الشعر يقول معناه فيما هو يلعب على هوامش نشطة من حياة الأفراد والجماعات مستغلاً طاقات اللغة، وتعبير الشعر أو الشاعر الأصيل عن وجدان شعبه وعن حدوس ذلك الشعب في مرحلته التاريخية مع إطلاق أحلامه ورؤاه باتجاه المستقبل، والقول بتحول النص –رغم ما يبدو من ثباته– كما إن القارئ يتحول.. كل ذلك يعتمده وفيق كمنطلقات منهجية يقررها في المقدمة مثلما سنراه يتكئ على بعض من المنهج النفسي والمنهج التاريخي والوصفي والبنيوي.. حيثما يلزمه ذلك وبتناغم متساوق. على أن الأساس الأهم يتعلق برؤيته لدور الصورة في القصيدة إذ هي (مظهر جمالي لاكتشاف العلاقات بين الأشياء، فكما أن المفهوم أساس في الفلسفة فإن الصورة تلعب على المستوى الدلالي الدور نفسه)

وبهذه (العدة) وعلى أرضية معرفية ونقدية وتذوقية واسعة وعميقة ورهيفة يجري وفيق دراسته للمعلقات مختاراً ستاً منها إذ الأربع المتبقية لا تضيف دراستها شيئاً، ويركز بشكل خاص على معلقة امرئ القيس باعتبار صاحبها رائداً في أمور هامة رئيسة فنية ومفهومية، وباعتبار المعلقة ذاتها إحدى أرقى النماذج في أشعار شعوب الأرض جميعاً.

وفي مقدمة الكتاب يلخص وفيق استنتاجاته من القراءة التحليلية لتلك المعلقات تلخيصاً يكاد يغني القارئ عن متابعة التحليل. ويركز على أشكال وكيفيات وعي شعراء المعلقات:

١-للزمن في أبعاده الماضوية والراهنية والمستقبلية من منظور موقع الذات بالنسبة للجماعة، وفي أبعاده النفسية الوجدانية، والرؤية الذاتية للزمن تقود إلى سلوك يعبر عن إيقاع حضاري تاريخي كلي فامرؤ القيس وطرفة ينصرفان إلى اللذة -كل حسب وضعه- واللذة مرتبطة بالأبيقورية الجديدة التي تترافق عموماً مع الانهيار الحضاري والتجدد، وهذا تجسده معلقة امرئ القيس ببنيانها خير تجسيد.

أما عمرو بن كلثوم فيتعلق بالماضي لتثبيت الحاضر والمستقبل فيه باعتباره سيداً يريد استمرار تلك السيادة ويشبهه لبيد في ذلك إلى حد كبير. أما زهير فيريد مجتمعاً مستقراً آمناً في الحاضر والمستقبل على قيم محددة في أواخر المعلقة. أما عنترة فيريد إثبات موقعه الحرّفي الجماعة وكلما أثبته ينتفي ليعيد إثباته.. إلى آخره.

إن الجميع غير معارضين للسلطة القائمة أو متمردين عليها -سلطة المجتمع الجاهلي- لكن السلطة تكافئهم على ذلك بإقرار أهمية قصائدهم.

ويعالج وفيق مفهوم الزمن النفسي عبر الصورة وعبر المطالع الطللية أساساً، ثم عبر البنيات النصية الأخرى في القصيدة الواحدة، حيث نجد امرأ القيس وحده رائياً للتغير الجذري القادم في شبه الجزيرة العربية.. وحيث (المستوى الفني للزمن يقدم بعداً ميتافيزيقياً.. فأصحاب المعلقات.. أدركوا الزمن بصفته وجداناً، وبكلمات أخرى أدركوا الزمان المجرد الحاضن للوجود والذي لا يقبل القياس).

٢-لمعنى الفعل، في إطار الزمن أو (مسرح الأفعال) كما

يعنون وفيق تلك الفترة.

فالمعلقة كأنما هي شعر الفعل. والتوكيد على كثافة الفعل يوصل إلى اكتشاف (طبيعة الشخصية العربية في العصر الجاهلي). يقول وفيق: (ماذا يعني أن تنخرط الشخصية في الأفعال؟ إن ذلك يدل بوضوح على سيطرة الإرادة الفاعلة. وسواء كانت قرارات تلك الإرادة قائمة على أسس عقلية أم لا فإن ذلك يعني أن شخصية الأفعال ذات ردود سريعة وفاعلة. وأقدر أن هذه الخاصة من أعمق خصائص الشخصية العربية وألصقها بتاريخ الأمة حتى عصرنا الحاضر).

٣-لحدود المكان: ثمة ولع مشترك بالمكان لدى شعراء المعلقات والشعراء الجاهليين عموماً، فماذا يعني ذلك؟

المكان هو مسرح التجربة الحسية للإنسان ومسرح النشاط الفردي والاجتماعي، فالمكان سجل للزمن الجاهلي، وهو في أحد مستوياته يمثل الطبيعة الصامتة، مثلما هو مظهر من مظاهر صراع الإنسان مع الطبيعة أو اندماجه فيها. إن المكان في المعلقات، حسب وفيق، يتجاوز حدود الحسية إلى إبراز موقف الجاهلي من العالم، والطبيعة الحية وتمجيدها وهي تمتلئ بالحيوانات الآمنة بعد الترحل /أي الخراب العمراني/ ينطويان على (حرص شديد على الحياة من جهة، وعلى احترام الطبيعة ومحبتها وتذوقها من جهة ثانية).

ويعقب وفيق على ذلك فوراً بالقول: (وبكل أسف فقد انقطع الموقف الحميم من الطبيعة في الشعر العربي بعد الجاهلية) وهذا رأي قد يكون موضع أخذ ورد.

وعلاقة الشاعر بحيوانه (جواد امرئ القيس، ناقة طرفة-

جواد عنترة) علاقة تكتظ بالدلالات الفنية والنفسية. وإذاً، فقد رأى شعراء المعلقات كيف تدحر الطبيعة الإنسان ثم كيف تعينه على تجديد حياته ثانية، فجاء المكان عندهم: (ليس بيت الحس فقط، ولا بيت الذكريات فقط، ولا مسرح النشاط، ولا سجل الزمن، ولكنه هذه المعاني كلها، متشابكة مجتمعة).

٤-للكلي عبر المحسوس: يقول وفيق بهذا الصدد: (تقدم لنا المعلقات مادة ثمينة لاختبار حدود التفكير العربي.)

وترد على الاتهام الدارج بأن العقل العربي في الجاهلي بقي على تخوم المحسوس (ولكن شاعر المعلقات- امرأ القيس وطرفة خصوصاً بوصفيهما للجواد والناقة على التوالي- يقبض بقوة على الكلي المجرد ويبسطه عبر المحسوس). وهذه سمة أصيلة من سمات الفن الرفيع، أعني التعبير عن الكلي بالمحسوس. وهذا هو الفرق الجوهري الفارق بين الفلسفة والفن بصورة عامة).

ومفهوم المتعالي العادل عند زهير في معلقته هو أيضاً من الأمثلة الهامة الدالة على ذلك.

٥-للعلاقات التركيبية بين مفردات العالم: وقد قدم امرؤ القيس نموذجاً أعلى لفهم أو حدس تلك التركيبية في العلاقات بين عناصر العالم ومفرداتها. أي إن (العربي الجاهلي قد قبض عبر المخيلة المصورة على العلاقات الأولية بين الأشياء.. ولعل أبرز ما أنجزته المعلقات هو اكتشاف الثنائيات. والثنائيات المتضادة هي نظام لمعرفة العالم (ما زال مستمراً بقوة في أنماط التفكير والسلوك والكتابة حتى عصرنا الحاضر).

إن الكشف النقدي عن كيفيات وعي هذه الأمور لدى

الجاهليين عبر قراءة وفيق للمعلقات لهو كشف يبرز أسساً هامة في طرائق وطبيعة معرفة العربي للعالم وفي إدراك أبعاد المأساة الكونية/ المطالع الطللية= خراب العمران =الموت/ والرد على هذه المأساة بتمجيد الحياة وانتظار قيامتها كما لدى امرئ القيس رائد الترميز لقيامة الحياة بالمطر خلافاً للقائلين بأنه ت. س. إليوت.

يبقى أن نقول: إننا نختلف مع وفيق في عدد من المسائل منها ريادة امرئ القيس –أو مرحلته– لابتكار شطري البيت الشعري الواحد. فالتقاليد الشعرية العربية قديمة وتتصل –حسب الدارسين الغربيين أنفسهم– بالتقاليد الشعرية الأكادية/ وفصحانا والأكادية لهجات من بنيان عربي واحد يتطور خلال تاريخنا الطويل/ وتلك الصلة يوضحها الدكتور يوسف الحوراني في كتاب: (البنية الذهنية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم). وهناك أمور خلافية أخرى تتعلق بتحميل معلقة امرئ القيس قضايا مصوغة في تساؤلات من نوع: هل رأى امرؤ القيس تماثيل يونانية وهو يصف جواده الذي صار مثالاً شعرياً للجواد المطلق؟!.. وغير ذلك مما لا يتسع المجال لمناقشته هنا.

ويبقى أن نقول أخيراً: إن قراءة وفيق خنسة للمعلقات في كتابه هذا (الآفاق القصية)[٢] لهو نموذج راق وشفاف ولماح وفريد لإعادة قراءة تراثنا الشعري، إضافة إلى ما فيه من كشوف فنية ومفهومية ترتبط بطبع الإنسان العربي وطبيعته ووجدانه وطرائقه العقلية والحدسية في معرفة العالم.

---

[٢] صدر الكتاب عن دار نون باللاذقية في أواخر عام ١٩٩٧ ولم يوزع إلا بشكل محدود بسبب أوضاع خاصة بالدار الناشرة، ويقع في ٢٠٥ صفحات.